مجلة مقابسات في اللغة و الأدب – جامعة يحيى فارس – المدية

المجلد: 03	العدد: 01	ديسمبر : 2022	ص: 155 – 172

جهود علماء العربية في مجال علم الدلالة

The efforts of Arab scientists in the field of semantics

د.جيلالي فاسي*

جامعة امحمد بوقرة، بومرداس – الجزائر

d.faci@univ-boumerdes.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022 / 10 / 19	2022 / 12 / 06	2022 / 12 / 28

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى استقراء الجهود العلمية في التراث العربي مما قدمه علماء اللغة العربية في مجال تقعيد المصطلح العلمي في الدرس اللساني، وما تعلق منه بعلم الدلالة خاصة.

فالدارس للمنتوج العلمي الذي خلَّفه العلماء العرب يدرك مدى اهتمامهم بعلوم اللغة، ومنها علم الدلالة. ويجد نفسنه –في بعض الأحيان– أمام مصطلحات هي عينُها المصطلحات التي يتداولها البحث اللساني الحديث: تحمل الدلالة ذاتها، وتستعمل في المجال ذاته. وتزخر المصادر العربية النحوية والبلاغية والأصولية بمباحث وتعريفات تتعلق بعلم العلامات

المؤلف المرسل: د.جيلالي فاسي d.faci@univ-boumerdes.dz

* د.جيلالي فاسي. جامعة امحمد بوقرة، بومرداس

بشكل عام، منها ما سلكه الجاحظ في معرض دراسته لمفهوم البيان واعتباره أن مداره على وظيفة الفهم والإفهام، ثم تتوالى الدراسات من بعده عند ابن قتيبة والجرجاني وابن سينا وابن خلدون والآمدي، وقد اهتمت هذه الدراسة بالوقوف على هؤلاء وما توصلوا إليه في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: علماء العربية، الدلالة، النحو، البلاغة، علم الأصول، التعليمية.

Abstract:

This article seeks to extrapolate the scientific efforts in the Arab heritage from what was presented by Arabic linguists in the field of establishing the scientific term in the linguistic lesson, and what is related to semantics in particular.

The student of the scientific product left by Arab scientists realizes the extent of their interest in linguistics, including semantics. And he finds himself - sometimes - in front of terms that are the same as the terms circulated in modern linguistic research: they carry the same connotation, and are used in the same field. The Arabic grammatical, rhetorical, and fundamentalist sources abound with investigations and definitions related to the science of signs in general, including what Al-Jahiz took in his study of the concept of the statement and considering that its orbit is on the function of understanding, then studies follow after him with Ibn Qutayba, Al-Jarjani, Ibn Sina, Ibn Khaldun and Al-Amidi, and this study focused on Standing on these and what they have achieved in this area.

Keywords: Arabic scientists, semantics, grammar, rhetoric, the science of origins, didactic.

*** *** ***

مقدمة:

ارتبطت اللغة العربية بنصٍّ مقدَّس هو القرآن الكريم، وقد نقلها هذا الارتباط من ميدانها الضَّيِّق في أغراض محدودة من الشعر إلى ميادين العلوم المختلفة في الأدب والتشريع والفلسفة والفلك والجراحة والصيدلة وغير ذلك من صنوف العلوم التي عرفتها البشرية.

ومن المعلوم بالضرورة أن اللغة العربية ثابتٌ من ثوابت هذه الأمة، وقد اعتنى بها العلماء المتقدمون عناية فائقة، بينما ترنَّح المتأخرون بين متقوقع على المنجز التراثي لا يرضى به بديلا، فتراه يرفض كل جديد مهما كان، وبين مُستخِفٍّ بالتراث ومُتَّهم لأصحابه بقصور في النظر، فتراه يدعو إلى نبذ كل قديم ومناصرة كل ما وفد إلينا من بلاد الغرب.

والإنصاف يقتضي حتما الابتعاد عن الطرفين والركون إلى الوسط من الفكر والنظر، فقد كانت للمتقدمين من علماء العربية جهود كبيرة لا يمكن تجاهلها في ميادين العلوم المختلفة بشكل عام، وفي ميدان علوم اللسان على وجه الخصوص. ولم تقتصر بحوثهم على النحو والصرف فحسب، ولكن امتدت لتشمل علوما لغوية أخرى.

يمكننا أن نكتشف –بعملية استقرائية– جهودا قيِّمة فيما كتبه العلماء المتقدمون في علوم اللغة، ومنها علم الدلالة. ونجد أنفسنا في بعض الأحيان أمام مصطلحات هي عينُها المصطلحات التي يتداولها البحث اللساني الحديث: تحمل الدلالة ذاتها، وتستعمل في المجال ذاته.

1. السيميائية:

السيميائية أو علم العلامات هو علم يبحث في اللغات والإشارات والتعليمات[1]، وقد اعتبر دوسوسير (De Saussure) اللغة المنطوقة والمكتوبة

جزءاً من السيمياء حين قال:" اللسان عبارة عن نسق من الدلالات التي تعبر عن المعاني، ومن ثم يمكن مقارنته بالكتابة وبالأحرف الأبجدية عند المصابين بالصمم والخرس، وكذلك مقارنته بالطقوس الرمزية وبأشكال الآداب وسلوكها، وبالإشارات المتعارفة عند الجنود وغير ذلك"[2]. ويفضّل دوسوسير جعل السيمياء جزءاً من علم النفس العام.

وبتصفح المراجع المختصة نجد هذا العلم قد برزت الدراسات فيه منذ ما يقارب منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك أن دوسوسير [1857-1913م] وبيرس (Peirce) [1839-1914م] كانا من مؤسسيه. ثم استمر في النمو والازدهار، ولم تزل حركته نشطة ودراساته مشعبة. يقول عادل فاخوري: "إن محاولة تأسيس نظرية موحدة شاملة للعلامات لم تقم إلا في أوائل القرن العشرين على يد الفيلسوف الأميركي بيرس (Pierce) من جهة، والعالم الألسني السويسري دوسوسير (De Saussure) من جهة أخرى"[3].

والقراءة المتأنية لبطون المصادر العربية في النحو والبلاغة والفلسفة تظهر حقيقة معرفة الحضارة العربية لعلم العلامات، وأن العرب مارسوه في حياتهم، واعتمدوا عليه في اتصالاتهم، قبل أن يقعِّدوا قواعده ويضعوا أصوله. من طليعة ذلك ما روي عن أبي بكر الصديق أنه قال بعدما اختار لخلافته عمر بن الخطاب: "جَعَلْتُ لَكُمْ عَهْدًا بَعْدِي، وَاخْتَرْتُ لَكُمْ خَيْرَكُمْ فِي نَفْسِي، فَكُلُّكُمْ وَرِمَ لِذَلِكَ أَنْفُهُ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ لَهُ"[4] أي اغتاظ من ذلك، وهو كما قال ابن الأثير من أحسن الكنايات، لأن المغتاظ يرم أنفه ويحمر[5]. فقد عبر أصدق تعبير عما أصاب الحاضرين من غيرة عن طريق ما علت أنوفهم من حمرة، وهي عبارة إشارية تحكي الواقع بصدق ويقين.

وإذا انتقلنا من الممارسة الطبيعية إلى رحاب الدراسة المنهجية، نجد الجاحظ (ت 255هـ/869م) يسلك مسلكا سيميائياً أصيلاً حين يقف عند تعريف البيان فيقول: "والبيان اسمٌ جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفْضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أيِّ جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفَهْم والإفهام، فبأي شيء بلغتَ الإفهامَ وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"(6)، ولما كان الهدف عند الجاحظ إنما هو الفهم والإفهام، برزت عنده العلامات التي تنقل المعنى، وهي تدور ما بين لفظ وغير لفظ. قال الجاحظ معدداً العلامات والإشارات التي تدل على المعاني: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصْبَةً"(7).

وتحقيقاً لعلم العلامات، راح يفصل الإشارات التي تنقل المعاني المختلفة، ويشرح كيفيتها. فالإشارة تكون باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب، أما إذا تباعد الشخصان فبالثوب وبالسيف. وتختلف دلالات إشارة السيف، فقد يتهدد رافع السيف والسَّوط فيكون زاجراً ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً. ويحدد الجاحظ المواقف الاجتماعية التي تستدعي التعبير بها، على نحو قوله: "وفي الإشارة بالطَّرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض ويُخْفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص" (8).

والعَقْد الحساب، وهو دون اللفظ والخط، وهو يشتمل على معانٍ كثيرة

ومنافع جليلة. وأما النِّصْبة فهي الحال الناطقة بغير لفظ، والمشيرة بغير يد. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، ولذلك قال الفضل بن عيسى بن أبان: "سَلِ الأرضَ فَقُلْ: مَنْ شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبكَ حواراً، أجابتك اعتباراً"(9).

وبجملة الإشارات والعلامات يتمكن الإنسان من الإفصاح في غير مقام، وعند الجهل بإحداها يخرج السلوك اللغوي إلى البوار، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عزّ وجلّ الحساب في الآخرة، وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعَقْد فسادُ جُلِّ النِّعَم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عزّ وجلّ لنا قواماً، ومصلحة ونظاماً(10).

وعلى هَدْي الجاحظ، جاءت مباحث ابن قتيبة (ت276/889م) في العلامات، فقد أورد الوسائل غير اللفظية التي تمكن من تبليغ المقاصد، كالاستدلال بالعين والإشارة والنصبة، ورُبَّ طَرْفٍ أفصحُ من لسان(11).

وبلغ اهتمام العرب بالدراسات السيميائية مبلغاً خصّوا فيه الحقول الدلالية بعلامات معينة تعرف بها، ويتواصل عبرها. من أبرز الأمثلة على ذلك معرفة الكاذب المنافق من الصادق المخلص وفق علامات، كنبرة الصوت وإيقاع الكلام. ويؤيد ذلك قول الله تعالى: «**وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**» [سورة محمد: 30]. وفيه دلالة بليغة تحمل العلامة "سيماهم" وآلتها "لحن القول". واختلاف النغمات والأصوات تبعاً لاختلاف المقاصد والأغراض مبدأ معروف عند علماء العربية. يقول الراغب الأصفهاني (ت 502هـ/1108م): "فاختلاف الألسنة إشارة إلى اختلاف اللغات وإلى اختلاف النَّغَمات، فإنّ لكل إنسان نغمة مخصوصة يميّزها السَّمْع، كما أن له صورة مخصوصة يميّزها البصر" (12).

والسيمياء بمعناه اللغوي المقابل للعلامات مصطلح عربي استعمل في الميدان اللغوي المتداول اليوم، ويشهد له قول الراغب الأصفهاني في أثناء شرحه لقوله تعالى:« **وَمِنهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمونَ**» [سورة النحل: 10]: "والسِّيماء والسِّيمياءُ العلامة، قال الشاعر:

لَهُ سِيمِيَاءُ لا تَشُقُّ عَلَى البَصَرْ

وقال تعالى: «**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم**» [سورة الفتح: 29] وقد سوَّمته أي أعلمته"[13].

2. الدال والمدلول والدلالة:

الدال والمدلول والدلالة مصطلحات لسانية تقابل (Signifiant) و(Signifié) و(Sémantique) في اللغة الفرنسية، وهي مصطلحات متداولة في الدراسات العربية ومصادرها، ونستعرض منها ما يلي:

1.2. الدلالة في القرآن الكريم:

أول ما نجد هذه المصطلحات في القرآن الكريم، فلقد أورد القرآن صيغة "دلّ" بمختلف مشتقاتها في سبعة مواضع تشترك في إبراز الإطار اللغوي المفهومي لهذه الصيغة، وهي تعني الإشارة إلى الشيء أو الذات سواء أكان ذلك تجريداً أم حساً، ويترتب على ذلك وجود طرفين: طرف دال، وطرف مدلول. قال الله تعالى حكاية عن غواية الشيطان لآدم وزوجه: « **فَدَلّاهُما بِغُرورٍ**» [سورة الأعراف:22]، أي أرشدهما إلى الأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عنها.

فإشارة الشيطان دال، والمفهوم الذي استقر في ذهن آدم وزوجه وسلكا وفقه هو المدلول أو محتوى الإشارة، فبالرمز ومدلوله تمت العملية الإبلاغية بين الشيطان من جهة، وآدم وزوجه من جهة ثانية. وإلى المعنى ذاته، يشير

قوله تعالى حكاية عن قصة موسى عليه السلام: «وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» [سورة القصص:12] كما ورد قوله تعالى حكاية عن إبليس: «قالَ يا آدَمُ هَل أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلدِ وَمُلكٍ لا يَبلى» [سورة طه:120].

فهاتان الآيتان تشيران بشكل بارز إلى الفعل الدلالي المرتكز على وجود باث يحمل رسالة ذات دلالة، ومتقبل يتلقى الرسالة ويستوعبها. وهذا هو جوهر العملية الإبلاغية التي تنشدها اللسانيات الحديثة. فإذا تم الاتصال الإبلاغي فواضح أن القناة التواصلية سليمة بين الباث والمتقبل.

وتبرز العلاقة الرمزية بين الدال والمدلول في قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا» [سورة الفرقان:45]، فلولا الشمس ما عرف الظل، إذ الشمس تدل على وجود الظل، فهي شبيهة بعلاقة النار بالدخان الذي يورده علماء الدلالة مثالاً للعلاقة الطبيعية التي تربط الدال بمدلوله. ويمكن تمثل هذه العلاقة في أي صيغة أخرى.

ولقد دلت "الأرضة" التي أكلت عصا سليمان عليه السلام على أنه ميت في قوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ» [سورة سبأ:14]. فتعيين طرفي الفعل الدلالي كما تحدده الآية ضروري لإيضاح المعنى: فالدابة وأكلُها العصا دال، وهيئة سليمان وهو ميت مدلول، فلولا وجود الأرضة (الدال) لما كان هناك معرفة بموت سليمان (دال عليه).

وورد قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا

مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» [سورة سبأ:7] فهذه الآية تؤكد على ضرورة وجود إطار للفعل الدلالي، عناصره الدال والمدلول والرسالة الدلالية التي تخضع لقواعد معينة، تشرف على حفظ خط التواصل الدلالي بين المتخاطبين.

وإلى المفهوم اللغوي ذاته يشير قوله تعالى على لسان أخت موسى عليه السلام: «إِذ تَمشي أُختُكَ فَتَقولُ هَل أَدُلُّكُم عَلى مَن يَكفُلُهُ» [سورة طه:40]

هذه الآيات التي ورد ذكر لفظ "دلّ" بصيغه المختلفة، تشترك في تعيين الأصل اللغوي لهذا اللفظ، وهو لا يختلف كثيراً عن المصطلح العلمي الحديث ودلالته، فإذا كان معنى اللفظ "دلّ" وما صيغ منه في القرآن الكريم يعني الإعلام والإرشاد والإشارة والرمز، فإن المصطلح العلمي للدلالة الحديثة لا يخرج عن هذه المعاني.

2.2. الدلالة عند البلاغيين والمناطقة:

أما إذا انتقلنا إلى استخدام اللفظ في إطاره الاصطلاحي فنجد عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ/1078م) قد أورد استعماله في دلائل الإعجاز حين قال: "فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق"[(14)]. ومن شواهد استعماله مصطلح الدلالة قوله: " ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ، التي هي لغاتٌ، دلالتها، لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء، ولا يتصور أن يجب فيها ترتيب ونظم"[(15)]. وقال أيضا: "وإذا كان هذا كذلك، فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف،... وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضلٌ في الدلالة حتى تكون هذه أدلّ على معناها الذي وضعت له

من صاحبتها على ما هي موسومة به"[16].

وواضح من خلال هذا النقل أن استعمال هذا المصطلح في الحقل المذكور مطابق لاستعماله في الدراسات اللسانية الحديثة. وقد تعدى تداولها بيئة اللغويين إلى بيئة المناطقة، جاء في كتاب الشفاء لابن سينا (ت 428هـ/1037م) عند حديثه عن تحديد ماهية النفس: "وأما دلالة ما في النفس على الأمور فدلالة طبيعية لا تختلف، لا الدال ولا المدلول عليه، كما في الدلالة بين اللفظ والأثر النفساني، فإن المدلول عليه وإن كان غير مختلف، فإن الدال مختلف، ولا كما في الدلالة التي بين اللفظ والكتابة، فإن الدال والمدلول عليه جميعاً قد يختلفان"[17].

3.2. الدلالة في ميدان تعليمية اللغة:

وفي ميدان علم اللغة الاجتماعي والتعليمية نقف عند ابن خلدون وهو يوضح العلاقة القائمة بين المعاني المحفوظة في النفس والكتابة والألفاظ، ويحصرها في ثلاثة أصناف:

أ-الكتابة الدالة على اللفظ.

ب-اللفظ الدال على المعاني التي في النفس والضمير (الصورة الذهنية).

ج-المعاني الدالة على الأمور الخارجية.

ثم نراه يعطي للكتابة (الخط) أبعاداً مهمة في العملية التواصلية باعتبارها أداة مهمة من أدوات التعليم والتعلّم، يقول معرفاً الخط وأداءه للدلالة: "الخط وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس، فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية" [18]. فابن خلدون يصنف الخط في المرتبة الثانية من حيث تأديته للدلالة اللغوية بعد الألفاظ، فالخط دال على الألفاظ، والألفاظ دالة على المعاني.

ويوضح هذه المسألة التي تخص أصناف الدوال فيقول: "إن في الكتابة انتقالاً من صور الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، فهو ينتقل أبداً من دليل إلى دليل ما دام ملتبساً بالكتابة، وتتعود النفس ذلك فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات"[19].

بهذا التعريف للدلالة اللفظية يكون ابن خلدون قد أشار إلى ما سماه "أندري مارتيني" بالتقطيع المزدوج (double articulation) الذي اشتهر في اللسانيات الحديثة: فالمستوى الأول هو الطريقة التي تترتب فيها الخبرة اللغوية المشتركة بين جميع أعضاء بيئة معينة، وتقوم كل وحدة من وحدات التقطيع الأول على دلالة وعلى صورة صوتية، ولا يمكن تحليلها إلى وحدات أصغر ذات معنى. أما المستوى الثاني فهو إمكانية تحليل الصورة الصوتية إلى وحدات صوتية مميزة، تحتوي هذه الوحدات على شكل صوتي ولا تحمل بذاتها أية دلالة.

فصور الحروف الخطية عند ابن خلدون هي التي تمثل المستوى الثاني، وهو تقسيم اللفظ (المورفيم) إلى وحدات صوتية (فونيم) لا تحمل بذاتها أية دلالة. ثم يرسم ابن خلدون العملية التواصلية أو الإبلاغية رسماً بيناً: فالخط يدل على الكلمات اللفظية التي في الخيال، والكلمات تدل على المعاني التي في النفس، والكلمات اللفظية التي في الخيال هي اختصار للعلاقة القائمة بين اللفظ ومعناه. فابن خلدون ينظر إلى هذين الطرفين (اللفظ والمعنى) باعتبارهما طرفاً واحداً، ذلك أن اللفظ قد ارتبط بتصور في الخيال.

فاللفظ يرتسم في الخيال كصورة صوتية ذات دلالة، فترتسم في النفس مقاصد هذه الدلالة، ثم تحصل للنفس ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات،

فتربط بالبداهة بين الاسم ومسماه، أي بين الدال والمدلول. فإذا كان المدلول شيئاً مادياً يكون الانتقال من اللفظ المسموع إلى الموضوع الخارجي، وإذا كان المدلول من المجردات يكون الانتقال حينئذ من اللفظ إلى المعاني الذهنية.

لا تختلف هذه المفاهيم التي قدَّمها ابن خلدون للدلالة ورَسَمَ على أساسها العملية الدلالية عن تلك النظرية التي توصل إليها دوسوسير حول الدليل اللساني حين قال: "فالدليل اللساني لا يجمع الشيء أو المادة والاسم، وإنما المفهوم أو المعنى المجرد والصورة السمعية، وليست هذه الأخيرة الصوت المادي بعينه بقدر ما هي الأثر السيكولوجي له أو التمثيل المؤدى من طرف مدركاتنا الحسية"[20]، فالكلمات ليست سوى صور سمعية، والعلامة اللسانية أو الدليل هي التأليف بين التصور الذهني (concept) والصورة السمعية (image accoustique).

وإلى الفكرة ذاتها ذهب ابن خلدون في سياق شرحه للعملية الدلالية التي اعتبر من خلالها الكلمات المسموعة دالة على ما في النفس، "كما أن القول والكلام بيانٌ عما في النفس والضمير من المعاني"[21].

لقد أسهم ابن خلدون في إرساء قواعد علم التربية مؤكداً على ضرورة الإحاطة بالألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية، وحصر تحصيل تلك المعاني في طريقين:

- طريق القراءة والتعلّم من الكتاب.
- طريق التعلم بالمشافهة والتلقين.

ووفق هذا التنظير التعليمي يحدد ابن خلدون مراتب الدوال بحسب أدائها للدلالات، ويشير إلى ضرورة إدراك السنن والقوانين التي تنتظم المعاني في

الذهن، وهي كما نرى عملية نفسية بحتة تصل الألفاظ بمحتواها الذهني. يقول ابن خلدون شارحا هذه المسألة: "ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعليم، وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية، تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب، فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة، وهي أخفها، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة، ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق"[22].

4.2 الدلالة في الدراسات الأصولية:

تتسم المباحث اللغوية –ومنها الدلالية– في كتب الأصوليين بعمق ودقّة الاستقراء، فتخريج الدلالة يتم عبر تفكيك بنية الخطاب بتحليل عناصره، وربط ذلك بالمقام العام الذي يقتضي تلك الدلالة دون غيرها. وبما أن اللغة منظومة لسانية وسيميائية بأنماطها المختلفة في التعبير وأسرار البيان، فإنها تبدو بارزة بشكل ناضج في بحوث الأصوليين الذين سلكوا منهج الاستقراء والتدقيق في الجزئيات على اللغة لاعتقادهم أن من الأسس الرئيسة لنظرية المعرفة هي اللغة، فخاضوا في أقسام الألفاظ والدلالات، وبحثوا الاشتراك والترادف، وقسّموا الدلالات بحسب المنطوق والمفهوم من الخطاب، كما أبانوا عن قدرة لغوية في تحديد أدوات ضبط الدلالة المعيّنة، فبحثوا الاستغراق والعموم والشرط والاستثناء والتقديم والتأخير والإطلاق والتقييد وغير ذلك.

وبالإضافة إلى وضوح المنهج الأصولي الذي يبدأ بما هو إجرائي قبل مناقشة المسائل النظرية المجردة، أكّد الأصوليون على ضرورة الإلمام

الشامل بحيثيات الخطاب وظروفه وتجاوز البنية اللسانية للخطاب إلى رصد المعالم الدلالية العميقة، وذلك من أجل الفهم الكلي لفحوى الخطاب.

وعلى سبيل المثال، خصص الآمدي في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام" مجالاً واسعاً تناول فيه ما يصطلح على تسميته في الدرس الدلالي الحديث بأنماط العلامة اللسانية، من خلال البناء الصوري منها وبنائها المفهومي، فبحث الأشكال التي تتمظهر فيها العلامة اللسانية ضمن نمطية تخضع لاطراد مفهومي تحدده معايير لغوية. من ذلك تناوله للفظ المطلق واللفظ المقيد واللفظ المجمل. يقول في تعيين اللفظ المطلق: "أما المطلق فعبارة عن النكرة في سياق الإثبات أو هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه"[23].

كما قدم تحليلاً مستوفياً لقضية أثارها الدرس اللساني الحديث على يد سوسير، وهي اعتباطية العلامة اللسانية، وقد تناول ذلك الآمدي في إطار بحثه حول نشأة اللغة. وقد أبان فيه عن قدرة كبيرة على التصنيف والتحليل خاصة في تحديده للأنساق الدلالية أو العلاقات الدلالية التي تربط الدال بمدلوله، أو الدوال والمدلولات بعضها ببعض مما يعرف بالحقول الدلالية.

من خلال هذا العرض الوجيز، ندرك أن انتشار تلك المصطلحات في التراث العربي دليل على معرفتها من جهة، وعلى شيوع العلوم التي تخصّها من جهة ثانية، لأن المصطلح وعاء للعلم، ومن دونه لا يظهر المصطلح، ولا توجد دواع إليه. والذي يعزز هذا الرأي ملاحظة فايل (Weil) في مقدمة كتاب الإنصاف، حين كان يتحدث عن انفراد الفرّاء بمصطلحات تخالف غيره فقال: "ولكن الفرّاء –بوجه عام– لم يهتم إلا قليلاً جداً بالأخذ المتناقَل في هذا العلم، بل يبدو عليه طابع مَنْ يؤسس فرقة أو مذهباً خاصاً به، وهو

يختلف عن سيبويه اختلافاً بيّناً... وكثيراً ما استعمل الفرّاء اصطلاحات تخالف الاصطلاحات المشهورة عند علماء النحو"[24]. وفي هذا الحكم إقرار بوجود اتجاه لغوي سيميائي –لساني عربي، بسبب وجود مصطلحاته وأوعيته.

ولما كانت علوم الدين تهدف إلى استنباط الأحكام الفقهية ووضع القواعد الأصولية للفقه، اهتم العلماء بدلالة الألفاظ والتراكيب وتوسعوا في فهم معاني نصوص القرآن والحديث، واحتاج ذلك منهم إلى وضع أسس نظرية، ولذلك وجدنا عادل الفاخوري يؤكد على أنه "ليس من مبالغةٍ في القول أن الفكر العربي استطاع أن يتوصل في مرحلته المتأخرة إلى وضع نظرية مستقلة وشاملة يمكن اعتبارها أكمل النظريات التي سبقت الأبحاث المعاصرة"[25].

3.خاتمة:

كانت هذه المقالة محاولة لبيان إسهامات علماء العربية الفعالة في الدراسات السيميائية وعلم الدلالة خصوصاً، وفي اللسانيات عموماً. لقد بدت جهودهم جلية في وضع حجر أساس الدراسات الحديثة ورسم خطتها. وإذا كان جهدهم التأسيسي محدوداً نسبياً، فهو يحاكي زمانه، ويساير مبدأ النشوء والارتقاء، لأن كل مبتدئ لشيء لم يُسْبق إليه، ومبتدع لأمر لم يُتَقَدَّم فيه عليه، يكون قليلاً ثم يكثر، وصغيراً ثم يكبر.

وإذا كان انتقال مصطلح "سيمياء" بلفظه ودلالته إلى الإنجليزية (Semiology) وإلى الفرنسية (Sémiologie) وكذلك إلى الألمانية وغيرها من لغات العالم، فيه إشارة ودلالة على جهد العرب في الدراسات اللغوية الحديثة، فله دلالة أخرى تشير إلى وحدة الحضارة الإنسانية وإسهام المجتمعات فيها، وعدم احتكارها لجماعة دون أخرى.

لقد عرف العرب علم العلامات وأثْرُوا مباحثه، ولا أجلى لمعرفتهم فيه من أن آثار دراساتهم انعكست في الدراسات المتأخرة. فرأي دوسوسير في السيميائية واعتباره اللغة جزءاً منها، وإلحاقها بعلم النفس عامة وعلم النفس الاجتماعي خاصة، صدى واضح القسمات لآراء الجاحظ، الذي اعتبر أصناف الدلالة خمسة ما بين لفظ وغير لفظ، جاعلاً اللغة من عناصر السيمياء، بالإضافة إلى حديثه عن المواقف التي ترتضي الشكل المعين من الأصناف المذكورة، وربطها بالمقام، وهو حديث علم نفس اجتماعي من دون أن يسميه.

4. الهوامش:

1. P. Guiraud: La Sémiologie, que sais-je? No:142, P.5.
2. F. De Saussure: Cours De Linguistique Général, P:33
3. الفاخوري، عادل، تيارات في السيمياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1990، ص11.
4. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 2001، ج28 ص17.
5. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، ج1 ص76.

6. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج1 ص76.
7. المرجع نفسه والصفحة.
8. نفسه: ج1 ص78.
9. نفسه: ج1 ص81.
10. نفسه: ج1 ص80.
11. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، 1925، مج2 ص181.
12. الأصفهاني، أبو الثاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، ص251.
13. المرجع نفسه، ص330.
14. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قرأه وعلَّق عليه محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص52.
15. المرجع نفسه: ص50.
16. المرجع نفسه، ص44.
17. ابن سينا، كتاب الشفا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص15.

18. ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، الدار التونسية للنشر، 1984، ج2، ص502.

19. نفسه، ج2، ص518.

20. Cours De Linguistique Général, P.98.

21. المقدمة، ج2، ص520.

22. نفسه، ج2، ص698.

23. الآمدي، سيف الدين محمد بن علي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرازق عفيفي، المكتب الإسلامي بيروت، ط1 1981، ج3، ص3.

24. المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، 1958، ص353.

25. فاخوري، عادل، علم الدلالة عند العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1985، ص5.